سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
الكاتب، الناشط، المؤسسة

اللِّقاءُ بأمسِكَ... غداً

نصري الصايغ*

اعتراف

عرفتُه في وهران، ولم أره. اِختَبَأَ خلف ترجمته الفذّة لـ **طاعون** ألبير كامو.

كانت وهرانُ يومذاك، في تداعيات الحصار، تُشْبِه، على نحوٍ ما، بغدادَ اليومَ، بيروتَ العام ١٩٨٢، غزّةَ الملتئمةَ على جراحها، ولا مَنْ يستجيب.

أسـألُ الدكتور سـهيل إدريس: هل كنتَ تترجم نبوءةً؟ هل كنتَ تُرْهِص بمدنِ الفتكِ اليومي والقتلِ اليومي واللعنةِ اليومية؟

كلّمـا شـعـرتُ باخـتـناق، كنتُ أفكّر بسـهـيل إدريس، يومَ استدرجني إلى وهران، وألزمني بالإقامة فيها. ألم تكن إقامتُنا أحيانًا كثيرةً في الملاجئ، مع جرذانٍ تُشْبِهنا، نموت نحن وتبقى هي، شاهدًا على انغلاق السماء؟

يبدو لي أنّ «الطاعون» العربي وليمتُنا. وفيما الدكتور ريّو يَكْفر بالسمـاء، كنّا نُصرّ على الإيمان بالجحيم، ولسـانُ ندائنا: حَيَّ على الطوائف والمذاهب والمذابح!

أسـأله في غيابه، لماذا ترجمتَ جان بول سارتر، وبطله يصـرخ: «أيُّها الإلهُ الأصمّ، لماذا لا تصغي إليّ؟»

ألتقولَ إنّ لدى العرب إلهًا من نفط، يَنْطق كفرًا، وهو خيرٌ من ربٍّ يصمت دهرًا، وشعبٍ يَخْرس قرنًا؟

من هنـا، جئتُ إلى سـهـيل إدريس: وجـوديّاً بالتـمـام والكمـال، وقوميّاً يكتمل عقدُه في دائرة الحقد على... والكُفْرِ بـ...

وكان ما كان.

جئتُ إليه، واستدنتُ منه بلا حساب: ثقافةً ومواقفَ وغضبًا. وذاتَ قراءة، أقمتُ معه في «الخندق الغميق» (أتعرفون الخندقَ المكانَ، أم الكتابَ؟). عرفتُه فتًى معمَّمًا، ودلّني عليَّ، لأنّني كنتُ أُشبِهه: فهو انتظم في سلك الصراط الديني المستقيم، وأَوْشَكَ أن يقيم في الجبّةِ والعمامةِ والإمامة، ثم تجرّأ وحكى، بحشمةٍ وبلا ابتذال؛ وأوشكتُ أن أصـيـر راهبًا في الطريق إلى سلك الكهنوت، لكنّي خلعتُ الصـاية، وخرجتُ على الصـراط،... ولا أزال. غير أنّني، جَبُنْتُ عن الكتابة. لعلّني لا أملك لغةً محتشمةً مثلَه، ونزقي يدفعني إلى قناعةٍ رسَّخها جبران خليل جبران فيَّ: فلقد اكتشَفَ صاحبُ **النبيّ** علاقةً سريّةً ما بين رجال الدين... وشخصياتِ العالم الرجيم.

أفعالٌ ماضية

أما بعد، فإنّنا نتعامل مع الموت بصيغة الماضي. هكذا، يَحْضر سـهيل إدريس بصيـغة: «كان،» «أمضى،» «أنهى،» «ترجّل،» إلى آخر ما كُتب عنه وفيه من مقالاتٍ وشهادات. ويضاف، إلى ذلك، ندبٌ للزمن «الجميل،» زمنٍ كان فيه سـهيل ومَنْ كان في حلقته ومَنْ معه ومَنْ ضدّه. فتصبح المناسبةُ طقسًا لحنينٍ ورغبةٍ في الرجـوع. لاسـتـعـادةِ الزمن وسـيِّده آنذاك: الإنسـانِ، الأديبِ، الكاتبِ، المؤسِّسِ، الآداب، المناضلِ، الموسـوعي، المثـقفِ... ثم، نقطة. انتهى.

غيـرُ جائزٍ هذا الاعتـداءُ على الرجل بالفعل الماضي! سهيل إدريس ليس ماضيًا، بل مشروعُ مستقبل. وهو الآن، حياةُ هذا المستقبل، ومن دونه يموت!

قيمتُه ليست في ما أَنجزه وما أَبدعه في مستوى بنيانٍ ثقافيّ مسـتـمـرّ، بل في مـا حَلُمَ به... وها التـاريخُ يُنْجـزه، وهـا الوعيُ يحقّقـه! فسهيل إدريس، برغم ثقافة الركام المعولم، هو مستقبلُنا، في كثيرٍ ممّا كتبه وحَلُم به. إذًا، فلنكفَّ عن الرثاء، ولنتوقّفْ عن نعي الزمن «الجميل»... **فالأجملُ بدأ في ٢٥ أيار ٢٠٠٠!**

هل كان جميلاً زمنُه ذاك؟ أيقال: نكبة جميلة؟ نكسة رائعة؟ أتدميرُ بور سـعيد مـرتيْن غرنيكا ثانية؟ عـملٌ فني إسـرائيلي يُحـتـذى؟ أيقـال: تدميرُ بيروت عملٌ مسرحي إسرائيلي؟ وهل تدميرُ بغداد مرتين استعادةٌ للمحمة جلجامش بلغة عبرية؟

* ـ كلمةٌ ألقاها الكاتبُ والناشطُ اللبناني العلماني في الذكرى الأربعين لرحيل سهيل إدريس، وذلك في ندوة أقامها النادي الثقافي العربي في بيروت.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

الكاتب، الناشط، المؤسسة

أيُّ زمنٍ «جميلٍ» هذا الذي نَنْدبه؟

إنّه زمنُ السقوط. كان زمنًا كالسكّين، ذَبَحَ سهيلاً وجيلَه وتلامذتَه ومريديه. كان زمنًا سخيّاً بالهزائم، أورثنا مصرَ وهي تدبّ على جبهتها إلى كامب ديفيد، وتَطْرد عبدَ الناصر من تاريخ النيل والضفاف من الأطلسي إلى الخليج.

أيُّ زمنٍ جميلٍ هذا الذي نَنْدبه؟

حلمُ سهيل في ذلك الزمن المظلم كان جميلاً بقوميته، ناصعًا بعروبته، مذهلاً بعلمانيّته، حادّاً في ديموقراطيّته، مجلجلاً في حريّته، دؤوبًا في حداثته، مبدعًا في احتضانه الإبداعَ. ولعلّه كان دائمًا غدًا... ولم يكن أمسًا.

ذاك زمنٌ لا نبكيه، ولا نقرِّظه حنينًا، ولا نفتقدُ فيه رجالَه، لأنَّهم أحياء عند شعوبهم يُرزَقون.

فمرحبًا يا سهيل... هل تَسْمعنا الآن؟

إذًا، طَمِّنّا عنّا، واهْدِنا صراطَ الوطن والحرية!

سيزيف

احترقتْ أصابعُنا مرارًا، وستحترق أكثرَ. كسيزيفَ نحن: نَحمل الصخرةَ ونتدحرج معها إلى القعر؛ وفي كلِّ مرة، تكبر الصخرةُ، والقعرُ أسفل.

وسيزيفُ العربيُّ ينهض. يرتجل قيامتَه بإرادته. ينوء بالحِمْل. يتسلّق قامةَ الأمة. يحترق بالشمس كإيكار. يُفْلت من قدر الجاذبية، ويعلن: فَلْيَحْيَ الركامُ، لن أكون الغبار!

سيزيفُكَ، يا سهيلُ، على ما يرام. يلقّبونه بالمقاوم والمجاهد والفدائي. هذه هي أسماؤه. يَرفع الصخرةَ تلوَ التحدّي، يتوقّف أحيانًا ليقول للشمس: قفي قليلاً، عليّ أن أغيِّر الزمنَ العربي. وها هو الزمنُ، بعد تموز ٢٠٠٦، يتغيّر، تمامًا كما تُقتَ إلى ذلك يا سهيل.

ما عدا ذلك ركامٌ، من سلالة «الزمن العربي» غيرِ المأسوفِ عليه. ما عدا ذلك، دائرةُ الدمار تستفحل اتساعًا. إنّها بشارةُ الانهيار!

هي الأمة، تَفْتك أمراضُها بأمراضها. طوائفُ ومذاهبُ في دائرة الافتراس المتبادل. يتهادَوْن القبور. مقابرُ العراق أكبرُ من مدنه.

فليذهبْ ذلك الزمنُ «الجميلُ» إلى العدم...

لا نريده!

بشارة

نشتاق زمنًا قادمًا، نراكَ فيه حتمًا.

أنتَ في مقام الرؤيا، ونحن في مرتبة التوقّع. وعليه، فكما رأيتَ، نتوقّع:

● أميركا تعيش حتفَها هنا، على حتفنا. لنا الموتُ نقاتل به. فما أكرَمَكَ، أيُّها الموتُ، معنا! وكم قيامةً بعدك؟ سندحرج الحجرَ عن فلسطين.

● إسرائيلُ على وشك العدوى؛ فلديها اليومَ لاجئون يهود. وبعضُ الإسرائيليين تَركوا مستوطناتهم الأمامية.

● المقاومة، كما نتوقّع، هي المستقبلُ العربي، كما هجستَ وكتبتَ ذاتَ مقالةٍ بعنوان «الرفيقان»: «إنّ الفدائي والأديب رفيقان حقيقيّان، رفيقا السلاح الأمثلان اللذان يَحْملان رسالةً متكاملةً، رسالةَ التحرير الكبرى. والقلمُ العربي الشريفُ لا يَمْلك إلا أن يكون قلمًا فدائيّاً (مقاومًا)، رفيقَ البندقيةِ الفدائيةِ (المقاومة).»

● نتوقّع أن يَغْرق كتّابُ النفط وإعلامُ النفط في الحُثالة. سيكون لنا معهم ما كانَ لكَ مع تمويلٍ مدسوسٍ لمجلة **حوار**، التي أُقفلتْ صفحاتُها عندما انقشع المالُ الأميركيُّ الحرامُ في تمويلها. لكننا نحتاج، إلى جانب الآداب ومعاركِ سماح، إلى الكثير من الأقلام والمواقف لنفتكَ بالوحش النفطي. وقد نستعير منكَ رمحَ الخِضْرِ وسيفَ القديسِ جاورجيوس... المدنييْن لا الطائفييْن.

سلام إلى...

أخيرًا، طَمِّنْ صديقَكَ الشاعر خليل حاوي. قلْ له إنّ البندقيةَ التي صوَّبْتَها إلى رأسِكَ، فانتحرتَ، هي الآن في الجنوب، ولها شقيقةٌ في غزّة، وأخواتٌ في الضفّة، وقصائدُ كثيرةٌ تُكتب من أجلها.

قُلْ له سنَعْبر الجِسْرَ خِفافًا، أضلُعنا امتدّت لنا جسرًا. قُلْ له: الزمنُ الجميلُ بين أيدينا. قُلْ له إنّنا نقاتل وننتصر، ولن نقاتل وننهزم. قل له إنّنا، في شاهق الألم والمأساةِ والمِحن، نعيش الوضوحَ الخالص: ما عجزتْ عنه الجيوشُ والدولُ والأنظمةُ الملكيةُ والدكتاتوريةُ والتقدُّميةُ والرجعيةُ... يتحقّق على أيدي شعبٍ آمَنَ بالأرض ربّاً.

وقتٌ للفرح

في نهاية فيلم «المصير» ليوسف شاهين، تُحْرق كتبُ ابن رشد، فيعلو صوتٌ في الجموع:

«علِّ صوتَكْ

علِّ صوتَكْ

بالغنا.

لِسّه الأغاني مُمْكنة.»

فَلْنُعَلِّ الصوتَ... إنّ سهيلاً يغنّي معنا الآن، ويرندح للانتصار القادم.

أَضيئوا أصابعَكم بالنار!

بيروت